الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش فى سلام بعيداً عن ذلك الماضى الذى يريبه ويزعجه

ولما عاد الامبراطور من منفاه فى إلبا توجس رستم شرا ، وهرول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور رؤيته ، ورده باحتقار . وكان رستم يقيم عندئذ منزويا فى بعض ضواحى باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون فى واترلو وحمل إلى منفاه فى سنت هيلانه ؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث ، وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة ؛ وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم تحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فنراه فى سنة ١٨٢٤ يسافر إلى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهنالك يعرض نفسه فى ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رستم فى لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهنالك لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشيء من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب الصيد ، ويغشى مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛ وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن لبلاده خائن لولى نعمته ، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن ، وكان يحتفظ دائماً بسكينته وهدوء نفسه

وتوفى رستم فى سنة ١٨٤٥ ، فى الرابعة والستين من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتى « هنا يثوى رستم رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر (١)

محمد عبد الله عنان

(١) استقينا معظم التفاصيل الخاصة بحياة رستم من المؤرخ الفرنسى لنوتر Lenotre

وحى الثلاثين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذى يبنيني ، أقف مستدبراً مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التى كونت جسمى ذرة ذرة ، وملأت رئتى شهقة وأفرغتها زفرة ، وسلسلت عقلى فكرة فكرة !

وأريد فى وقفتى هذه أن يكون فى روحى غيبوبة وامتداد ، وفى ذاكرتى صحو واجتماع ، وفى قلبى حنين واهتياج ، وفى عقلى سكون وإدراك ، وفى جسمى صحة ووقود ، وفى قلمى حساسية وبيان . . . فإن الصور التي أرصدها مخبوءة فى ركام من أيامى البالية التي لبستها أمام الشمس والقمر قطبعاها بالخاتمين « الأبيض والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمة أو دمعة أو فكرة أو ذكرى ، أو قطعة من قلبى أو هزة من جسمى فى غمارة الطفولة أو صحوة الصبا أو فورة الشباب الذى يوشك أن يمضي به ما أشاب الصغير وأفنى الكبير من كر الغداة ومر العشى . . !

* * *

أمس ! يا وادى الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة . أنا الآن فى حركة إدبار وارتداد إليك ، فى ساعة ليس لى فيها حاضر راهن يشغلنى ، ولا أمل غائب يغازلنى ، واقف فيك على أطلالى ! أبحث فيها عن سور عينى ولها فيك ظلال ، وأنغام أذنى ، ومنها بك أصداء . . بل إنى لأبحث عن سرى وميراثى من عهد آدم حادراً فى الأصلاب متنقلاً فى الأحقاب فى عالم غيبى ومشهدى !

فمن لى بما يروى لى ما بين مبتداى ويومى هذا . . ؟ إنها شقة بعيدة أحسب أنها تعيى تهاويل الخيال المسعد !

* * *

وقد قالت « الفسلجة » : إنى صورة تتجدد فيها خلايا جسمي كل سبع سنين . . . فلست أنا الجسم الأول ولا الثانى ولا الثالث ولا الرابع . . . وليس فىّ بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائى التى مضت وأبعاضى التي غيبت ، فلن أجدها إلا فى ذلك الجسم العظيم

الذى أنا خلية منه : الأرض . ويالها من تربة لمن يبحث !

إذاً يا روحى ، أنت « المكان » الذى يمكن أن أبحث فيه عنى : سراً كامناً فى عالم الغيب ، ثم نواةً فسقدةً قلباً نشمرةً مدركة . فأفسحى لى من شأنك العظيم واحرقى بخوراً يعيدُ لى جواً أعيش فيه ساعة الذكرى !

* * *

ودخلت قدس الروح المعطر ، ومعي ذلك « الصندوق العجيب » بحجمي ! أتحسس الشعاعَ الأول الهادى إلى مفتاح حياتى ، فلم أرَ ولكنى سمعت نجوى تقول :

« حينما طلبت شعلةُ الحياة حطباً جديداً قبل ثلاثين سنة ، دُفع بك وأنت « لاشيء » فى غيبوبة الأزل على حبل نسل تناهى إليك من أبيك عن أبيه عن ... آدم فى صف كبير من لداتك الذين أتى دورهم فى الاحتراق ... فانعقدت البذرة وتخلقت وركبت الذات ووضعت الذرة الصغيرة التى فيها كل ميراث آدم ، واتصلت بها الشرارة الخفية المجهولة فدار قلبك الصغير فأضاف بنبضه صوتاً إلى ضوضاء الحياة . وبحركته دفعاً فى موكبها . . وبحرارته جمرةً فى شعلتها ... فاختلج آدم فمن والاه على السلسلة التى بينك وبينه ، فرحاً بالامتداد والخلود .. واستبقت الملائكة والشياطين إلى احتلال الأمكنة فيك استعداداً للمعركة المقبلة ... وعششت فى قلبك الغربان والخفافيش السود ، والحمامات البيض شأنها على كل غصن ... وطارت عليك الذرات الجامدة التائهة لتكون لبنات حيةً فى البناء الجديد .

ثم فصلتَ عن المستودع الذى التقى فيه أزلُك وأبدُك ، وخرجتَ فى موكب الربيع فى ابريل سنة ١٩٠٧ مع أوراقه وأزهاره وأغصانه وأفراحه . . كتلةً لحمية عمياء بكماء صماء . . فأسرع جو الأرض إلى رئتيك المختلجتين فى ارتباك وسرعة لتلحقا حركة الحياة بالأحياء ، وفتحت الأضواء أجفانك ، وكل شعاع يريد أن يكون بشير النور ورسالة الشمس أم الحياة إلى « عدستك » الجديدة ... .

... وكان أول صوت اقتحم أذنيك من ضجة الحياة ، صوت الآلام . . آلام تكاليف الحياة وحمل أمانتها الفادحة التى عرضت « على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » . . . صوت أمك . .

وبكيتَ من ازدحام هذه العوامل على جسمك الرقيق الغريب بينها فأذاقوا فاك لذّته فسكتَ ... وكان هذا أول درس عرفته من منطق أهل الأرض مع المزعجين . !

* * *

ثم عاشت هذه الكتلة طفيلية فى حياة كحياة النبات ، وفى فراغ كفراغ النائم ومضت الدنيا تدور كل يوم حول « صندوقها العجيب » فتدخل إليه على شعاع أو صوت أو طعم أو لمس لتثبت وجودها فيه أو لتُخلَقَ فيه خلقاً آخر على الأصح « والأكوانُ رِعداد المقول » كما يقول الرافعى العظيم .

وتفاعلت أشياء الدنيا مع أشياء القلب فأخذ الشخص الكامن يبدو ويمتد فكل ذرة تلد وكل معنى يتركب من هذه الأبجدية وظهرت بعض النسب بين الأشياء ، واشرأبت الأشياء إلى براهين وجودها . .

فقلت لصوت النجوى : أكانت الدنيا عدما قبلي ؟ ! .

فأجاب : قالت بعض الفلسفات : الدنيا فكرة !

قلت : لا ! بدون برهان . . .

قال الصوت : أنت وأخوك قد خرجتما من مستقر واحد بجسمين مختلفين قد تقمصتك روح وتقمصته أخرى . أفرأيت لو خالف بينك وبينه فكنتَ إياه وكانَ إياك ؛ أفلا كان العالم غير ماهو الآن عندك وعنده وعند الناس ؟

فتأملتُ ولم أعط الجواب للآن . !

* * *

ثم انقطع الصوت وابتدأت أرى فى الجمجمة خيوط ضوء على حواء وآدم فى شخصي الأمّ والأب ، وأسمع منها أهازيج الجنة وأصوات ولدانها فى أصوات لداتى وأترابى بملاعب الطفولة ، وأرى قطعة من سماء القاهرة والشمس فيها والقمر ، فوق المكان الذى تيقظت فيه من الغيبوبة والذهول : حارة الروم . . . سقاها الحيا ، فوقفت أبحث عن الطفل الصغير وضعفه وجهله وبراءته وفراغه وثيابه وحلواه وحيوانه وصورته التى كان يتعجب منها كثيراً . . . فوجدتها أشياء لا تزال تضحك كما كانت . . . وأنا أبكى بعلمى وأنوء بقوتى ، وأنفجر بامتلائى وأجن بيقظتى . .

ففتحت لها قلبي فكادت تنكره وتختنق بما فيه .

وقلت يا حمراء هل رجعة ! قالت وهل يرجع ما فاتا !

* * *

ثم جاء العهد الذي رأيت فيه الدنيا في شخص المعلم لها عصا تلوح لي بها إلى الحق والواجب ، والنفس والغير ، وتشير بها إلى الأمام . . . إلى الغاية . . . إلى الرجولة ، ثم تُصلصل بالقيود حين يصلصل الجرس . . .

فصحوت لأعلام الطريق واستيقظت لصحبة ذلك الشخص الغامض المبهم الذي ابتدأ يضايقني بندائه ، ويشغلني بأشيائه ... أنا ! فتمنيت وتخيلت وتشهيت وجاء الأمل والعمل ، وأسلمني الزمان إلى عهد الشباب بنداءاته وهزاته ، وأقبلت الدنيا بأعراسها وأحتوائها ومباهجها ومفاتنها تتحبب وتتنازل وتُغني للثمرة الناضجة . . واستيقظت الشياطين والملائكة للمعركة التي رسمت خططها واحتلت لها الأمكنة في قلب الجنين ، وحامت الحمامات والفراشات البيض ، والأغربة والخفافيش السود ، فتغيرت نبضات القلب وسمعت منه أصوات لاعهد لها ولا تاريخ . . وقال الجسد : هأنذا . . . وقالت النفس : وهأنذي ... وقالت الحياة : دونكما . . .

ووقفت أنا . . . أرى المعركة وأتفرس في القتلى والمصروعين بدهشة وأسف ولذة وعجب إلى يومي هذا ، وهكذا يدور الصراع والقبر الموعد . . .

* * *

وارتسمت البشرية بعلومها وآدابها كلمات على ذلك العرض الأبيض الذي في رأسي : فألف ياء ، وواحد وألف ، وأرض وبحر وسماء ، ومادة وقوة ، ومثلث ودائرة ، وزنوج أفريقية وبيض أوروبا ، وبوذا وفينوس ، والجمل وزبلن ، والسلحفاة والطيارة والراديو ، والقبر والقصر ، والحق والواجب . . وقيل وقالوا ... ولست أدري بعد ذلك : أهو قبض على ريح . ؟ . أو إمساك على ماء ؟ ! أو سراب على سبسب ؟ !

* * *

أيها الدهر الذي صحبته ولبسته ذرة صغيرة الى أن صرت كوناً فيه قلب وعقل ! هأنذا كواقف في صحراء تلتقي بها على مدى بصره آفاق السماء ، إذا تلفت وراءه وجد إبهاماً وغموضاً وإذا تطلع أمامه وجد إبهاماً وغموضاً . . .

وددت لو أني كنت الرجل الأول لأشهد نشأة الانسان والرجل الأخير لأشهد فناء الانسان . . . الانسان الواحد الهائل الذي يتمثل في هذه الأشخاص التي تمتلىء بها الأرض وتفرغ منها كل لحظة . . . الانسان الذي وقع عليه كل الضوء وكل الظلام . . . وددت هذا لأعرف ! ولكن ليس لي متقدم عن زماني هذا ولا متأخر .

يا لَبِنات الجسد ... ياقلبي الذي لم أره ولن أراه .. ياأعضائي وأجزائي التي تجمعتْ لأكون . . .

ياناصيتي وقدمي ، وإهابي وفؤادي وظاهري وباطني . . !

أما ستشمتن الألفة تحت هذا الرباط الضاغط ، فترون الفكاك والانطلاق ؟

إني أشعر أن حملتكن إصراً ، وأرهقتكن من أمري عسراً ، وآذيتكن من جوار روحي : بيت النار !

إني يقظ للصحبة وفيٌّ للرفقة في هذه الرحلة ، لا أبخل عليكن بالنظرة الراثية !

* * *

أيتها الأيام المقبلة التي فيها الأعباء الكبيرة والصحو من الرؤى والأحلام ، وبلوغ القمة ثم الانحدار إلى الحفرة التي فيها الدوام والقرار . .

أعيذ حرارة قلبي من يدك الباردة . . ، وما وراء قلبي فهو لسطوة قوانينك ، وصرامة نواميسك . فهذا شعري فاصبغيه بلون الكفن . . . وجلدي فسجلي فعلك بتجعيده ، وقدماي فافتلي قيدهما ، وأوصالي فافصمي عراها ؛ وإن شئت فاغلق عيني وأحوجي سمعي إلى ترجمان ، واجعليني لجذع هصرت غصونه وذهبت حِلاه وفنونه . .

أما قلبي فدعيه لي بأوتاره وأشواقه ، صوتاً أخيراً وصاحباً محدثاً أعيش معه يوم يدبر الناس وتزيغ الحواس ؛ حتى تطلبني الأرض جسداً تأكله !

عبد المنعم خلاف